

القصر الذي بالقلعة

Le Palais du Fort à Baghdâd.

في الجنوبي الغربي من القلعة ببغداد الآن قصر على دجلة فيه عدة حجر وبينها إيوان مستقبل دجلة فيه من الرياسة العربية ما يعجب ويفرح ولكن أيدي البلى قد تماورته فشوهت من صورته ورفقت من ريازته وهدمت من آجره وهو على ذلك دليل على العظمة والفخامة .

وآجره وسط ليس بصغير الحجم ولا بكبير فهو من طرز الأجر الذي في منارة مدفن الشيخ معروف الكرخي وأصغر من آجر المدرسة المستنصرية وقنطرة حربي ، ويشبه طابوق باب الحلبه أي الطلسم على ما حققنا بأنعامنا النظر في صورة ذلك الباب .

أما منارة الشيخ معروف فقد كتب على ظاهر حوضها ما نصه « بنيت هذه المنارة سنة اثنتي عشرة وستمائة » فهي مبنية زمن خلافة الناصر لدين الله العباسي ومثلها في البناء منارة جامع قمريّة ومنارة جامع الخفافين اليوم بلصق المدرسة المستنصرية من الجنوب .

والقصر الذي بالقلعة اليوم يسميه العامة وامثالهم « قصر المأمون » ولا نعرف لهم دليلا على هذا القول الغريب والحكم المتفسخ فإن للمأمون قصرا في الجانب الغربي من بغداد . ففي ص ٢٧ من تاريخ مناقب بغداد ما عبارته : « وفي الجانب الغربي قصر عيسى وقصر المأمون وانتوثة وغير ذلك » وقصرا بالجانب الشرقي لم يهافظ على اسم المأمون . فقد ذكر ياقوت الحموي في مادة « تاج » ما عبارته : « وكان الى ذلك الوقت يسمى القصر الجعفري ثم انتقل الى المأمون » ثم قال « وبقي الحسن مقيما في القصر المأموني » فهذا يدل على ان للمأمون قصرا آخر نسب اليه فلنلخص كلام ياقوت على هذا القصر لنعرف امره والخلاصة هي :

ان جعفر بن يحيى البرمكي بنى بالجانب الشرقي قصرا فلم يستحسنه صاحبه

مؤنس بن عمران وراوضه على ان يخص هذا القصر بالمأمون عند حضوره حضرة الرشيد ففعل وتحمل الرشيد ما انفق عليه وتركه لجعفر فلم يزل جعفر يتردد اليه أيام فرحه ومتزهاته الى ان أوقع الرشيد بالبرامكة، ثم انتقل الى المأمون ففتح له بابا شرقيا الى جانب البرية واجرى فيه نهرا ساقها من نهر الملع وابتنى مثل قرياتها منازل برسم خاصتها واصحابها سميت «المأمونية» وكان قد أسكن فيه الفضل والحسن ابني سهل ، وفرغ بسفرهما الى خراسان مع المأمون ولما ورد الحسن بن سهل بغداد سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) نزل في القصر المذكور وكان يعرف : بالمأموني ؛ فتزوج المأمون بوران وانزلت بهذا القصر وطلبه الحسن من المأمون فوهبه له وكتبه باسمه و اضاف اليه ما حواه وغاب عليه اسم الحسن فعرف به مدة وكان يقال له : القصر الحسيني ، وبعد موت الحسن بقي لابنته المذكورة بوران الى أيام المعتمد على الله العباسي فاستنزلها عنه بموضع واخذت هي في اصلاحه وتجديده ورمت ما دثر منه ؛ ثم توفي المعتمد على الله بالقصر الحسيني سنة ٢٧٩ هـ (٨٠٢ م) ثم استولى عليه المعتضد بالله فاستضاف الى القصر الحسيني ماجورة فوسعه وكبره وادار عليه سورا واتخذ حوله منازل كثيرة ودورا (١) وابتدأ ببناء قصر التاج وجمع الرجال لحفر الاسس فاتفق له ان يخرج الى آمد فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار فكرهه وابتنى على نحو ميلين منه الموضع المعروف بالثريا ووصل بنساء الثريا بالقصر الحسيني وابتنى تحت القصر أزاجا من القصر الى الثريا تمشي جواريه فيها وحرمة وسراريه وما زال باقيا الى الفرق الاول الذي صار ببغداد فعفا اثره ، ثم مات المعتضد بالله في سنة ٢٨٩ هـ (٩٠١ م) وتولى ابنه المكتفي بالله فأنتم عمارة التاج الذي كان المعتضد وضع اساسه ومد له مسنأة طاعنة الى وسط دجلة . وكانت صفت التاج

(١) وفي ص ١٣ من مجلة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٣٠ عن كتاب لشوار المحاضرة ما عبارته « كنت اتقصد لابي حازم وقوفا في أيام المعتضد منها وقوف الحسن بن سهل ، فلما استكثر للمعتضد من عمارة القصر المعروف بالحسيني ادخل اليه بعض وقوف الحسن بن سهل كانت في يدي مجاورة للقصر » وذكر ابن خلكان في « ١ : ١٩٣ » من تاريخه ان قطر التندى بنت خارويه وهي زوج المعتضد توفيت لتسم خلون من رجب سنة سبع وثمانين ومائتين ودفنت داخل قصر الرصافة ببغداد واراد به القصر المتكلم عليه الآن . (الكاتب)

مبنية على خمسة عقود كل عقد على عشر اساطين خمس اذرع ووقعت في ايام المقتفي سنة ٥٤٩ (١١٥٤ م) صاعقة فتأججت فيها وفي دارها وقبة الحمار وبقيت النار تعمل فيه تسعة ايام ثم اطفئت وقد صيرته كالفحمة وكانت - اي الصفة - آية عظيمة فاعاد المقتفي بناء قبة الحمار على الصورة الاولى ولكن بالحص والاجر دون الاساطين الرخام واهمل اتعاهده المقتفي حتى مات وبقي على ذلك الى سنة ٥٧٤ (١١٧٨ م) فتقدم المستضيء بنقضه وابراز المسناة التي بين يديه - لعلها مسناة صفة التاج - الى ان تعاضى بها مسناة التاج ، فشق اساسها ووضع البناء فيها على خط مستقيم من مسناة التاج واستعملت انقاض التاج مع ما كان اعد من الآلات لعمل هذه المسناة ووضع موضع الصحن الذي يجلس فيه العباسيون للمبايعة ويسمى اذ ذاك : التاج ايضا وهو دار مشهورة جليلة المقدار واسعة الاقطار من دور الخلافة زمن ياقوت الحموي وفي موضع دار الخلافة كان القصر الجعفري اي القصر المأموني اي القصر الحسني .

موضع القصر الحسني والتاج

وضع العلامة لسترنج ريزا القصر الحسني في جنوب المستنصرية مما يلي جامع الخاصكي غربا على دجلة قرب ما يسمى اليوم « المحكمة الشرعية » وهذا على حسب خريطة ص ٢٦٣ من تاريخه . ووضع شرق القصر الحسني ريزا جامع الخلفاء اي جامع سوق الغزل اليوم . ووضع تحت القصر الحسني « قصر التاج » قرب جسر مود اليوم . من الشمال وجامع الخلفاء لم يسم عندنا بجامع القصر إلاضافة الى احد هذين القصرين فباني التاج الحقيقي وباني جامع الخلفاء هو المكتفي العباسي كما ذكر ابن الطقطقي في الفخري ، والكون القصر الحسني اندمج في دار الخلافة ولكون دار الخلافة تحت الجسر العباسي القريب من شمالي المستنصرية ولان باب الغربية جنوب طريق الجسر المذكور كما ذكر العلامة لسترنج في الخريطة المذكورة ولكون المدرسة المستنصرية فيما يلي شمالي دار الخلافة كما نقل الباحثة يعقوب نعوم سر كيس عن تاريخ ابي الفداء « ١٧٠ : ٣ » في لغة العرب « ٥ : ٤٥٣ » يظهر لنا :

١- ان دار الخلافة لا تتجاوز شارع الجسر القديم اليوم .

- ٢- وان قصر المأمون الشرقي جنوب المستنصرية لا شمالها وبين القلعة اليوم والمستنصرية قراب ميل واحد .
- ٣- وان باب الغربية ليس بشريعة المصبغة نفسها اليوم بل بشرقها قليلا خلافا لما حققه الأستاذ يعقوب نعوم سر كيس .
- ٤- وان قول العامة وامثالهم بان قصر القلعة اليوم هو قصر المأمون الذي لم يبق في الدنيا إلا اسمه ضرب من الجهل او الظن او التغليب كما غلبوا لفظ « العادي » على كل شي قديم .

قصر القلعة : قصر الناصر لدين الله

وبعد علمك باتقان بناية هذا القصر وصفة آجره وقدمه كما قدمنا في صدر مقالنا وان عصر الناصر لدين الله أطول عصور الخلفاء العباسيين وانه من أكثر متأخريهم عمارة وسعادة وسياسة وانت أطل بغداد في زمنه لا يتجاوز السور الشمالي وان السور المذكور لا يتجاوز سور القلعة الشمالي اليوم لوجود اطلاله تنقل لك ما قاله ابن جبير في قصر الناصر لدين الله الشمالي ونقلناه في لغة العرب « ٦ : ٤٨٨ » ونصه - والضمير عائد الى الناصر لدين الله - :

« وقد انحدر عنها صاعدا في الزورق الى قصره باعلى الجانب الشرقي على الشط » فقصر القلعة اليوم باعلى الجانب الشرقي ايضا وعلى دجلة فهو قصر الناصر لدين الله اعتمادا على الأدلة المذكورة . وان اقوى شاهد على ان شمالي القلعة اليوم كان شمالي بغداد اذ ذاك هو ان الناصر لدين الله خرب سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١م) محلة « المخزم » التي كانت بين الرصافة ونهر الملعى فكان شمال القلعة خرابا في ذلك الزمان على ما ذكره المؤرخون فهل من مفند لقول من اقوالنا حبا للتاريخ ؟

مصطفى جواد

« لغة العرب » من يطالع هذه المقالة يجد ان هذه الأدلة العقلية والنقلية (التاريخية) يصعب نقضها إلا انه اذا ثبت لمحقق آخر ان البناء الذي شاده الناصر خربه من جاء بعده واقام على موطنه عمارة اخرى فالحق يكون بجانبه وتضعف هذه البراهين .

فهل بين القراء العراقيين من يرشدنا الى ذلك ولمننا الشكر سلفا .